(من دروس شهر رمضان)
"رمضان شهر جبر الخواطر"
للشيخ / محمد حسن داود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين،
وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

فإن من العبادات الكريمة والأخلاق الطيبة والقيم النبيلة التي حث عليها الإسلام
ودعا إليها: "جبر الخواطر"، يقول سفيان الثوري: "ما رأيت عبادة يتقرب بها العبد
إلى ربه مثل جبر خاطر أخيه المسلم".

فهو خلق إسلامي عظيم، وقيمة عالية نبيلة، وأدب شرعي قويم، يدل على سمو
نفس، وعظمة قلب، وسلامة صدر، ورجاحة عقل، يجبر المسلم فيه نفوساً كسرت،
وقلوباً فطرت، وأجساماً أرهقت، لاسيما ونحن في شهر جبر الخواطر؛ فعن ابن
عباس أنه قال: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا
يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ، وَكَانَ جَبْرِيْلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ،
فِيَدْرِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ
مَنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ" ويقول صلى الله عليه وسلم: "مَنْ فَطَرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ
غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا".

وإن مما يعطي هذه القيمة قدرا ومكانة أن من معاني اسم الله (عز وجل) "الجبار"
أنه سبحانه يجبر الخواطر؛ يجبر القلب الكسير، ويغني عبده الفقير، وييسر على
المعسر كل عسير، ويغفر الذنب الصغير والكبير.

إن جبر الخواطر عبادة عظم الله شأنها، فهي جوهرة تتلألأ في عقد أخلاق الفضلاء،
تزين بها الكرماء، وحاز منها سيد الأنبياء النموذج الأعلى، فكانت من شيمه
المباركة، وأخلاقه الطيبة، وكيف لا؟ وقد قال فيه ربه سبحانه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
عَظِيمٍ) (القلم 4) وقال سبحانه (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة 128) وقال عز
وجل (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء 107)، ومن ذلك:

عن معاوية بن قرة، عن أبيه، قال: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا جَلَسَ
يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ، فَيُقْعِدُهُ
بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَلْكَ فَاْمْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الْحَلَقَةَ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزَنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ
(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: "مَالِي لَا أَرَى فُلَانًا؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بُنِيُّهُ الَّذِي
رَأَيْتَهُ هَلْكَ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَسَأَلَهُ عَنْ بُنِيِّهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلْكَ،

فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "يَا فُلَانُ، أَيَّمَا كَانِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمْرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِيَ عَدَا إِلَى بَابِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ"، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهْوٍ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: "فَذَاكَ لَكَ" (رواه النسائي)

وعن أنس بن مالك: "أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السَّكِّكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، حَتَّى فَرَعَتْ مِنْ حَاجَتِهَا" (رواه مسلم).

ولما كشفت الريح يوماً عن ساقِي ابن مسعود (رضي الله عنه) فضحك القوم منه، فجبر النبي (صلى الله عليه وسلم) خاطره، وأعلى شأنه وبين مكانته عند ربه، فقال: "الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهْمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ" (رواه أحمد).

بل إنه صلى الله عليه وسلم جبر بخواطر أمته جميعاً في أكثر من موضع، ومن ذلك حينما رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي"، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ): "يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلَّهُ مَا يُبْكِيكَ؟" فَاتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ (الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: "يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ" (رواه البخاري)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَوَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا" قَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ"، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانِي خَيْلٍ دُهِمٌ بِهِمْ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟" فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَأَتَهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ" (رواه مسلم).

وعلى هذا الخلق الطيب والقيمة النبيلة كان الصحابة (رضي الله عنهم)، فما كان كعب بن مالك ينساها لطلحة يوم أن ذهب إلى المسجد متهللاً مستبشراً بعد أن نزلت توبته بعدما تخلف عن غزوة تبوك؛ فقام واستقبله فرحاً لفرحه فاحتضنه واقتسم معه سعادته وفرحته، يقول كعب: "والله لا أنساها لطلحة". وما كانت أم المؤمنين عائشة تنساها لهذه المرأة الكريمة لما دخلت عليها فوجدتها تبكي (وقت حادثة الإفك) فبكت معها كثيراً دون أن تنطق كلمة. قالت: عائشة: "لا أنساها لها"

إن الناظر في الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت بجبر خواطر الناس جميعاً، لا سيما الضعفاء منهم، قال تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

(الضحى 8، 9) ومن ثم فإن من جبر الخواطر المشاركة في سرور وفرح، أو ترح، وإجابة السائل، وتفريج الكروب، وكساء العراة، وإطعام الجوعى، ومداداة المريض، فقد قال صلى الله عليه وسلم "أحبُّ الناسِ إلى الله أنفعُهُم للناس وأحبُّ الأعمالِ إلى الله سرُّورٌ تُدخِلُهُ على مسلم أو تُكشِفُ عنه كُرْبَةً أو تَقْضِي عنه دَيْنًا أو تَطْرُدُ عنه جُوعاً..." (رواه الطبراني)

ومنه طيب الكلام وحسن المقال، قال تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) (البقرة 83) وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ".

ومنه البشاشة وطلاقة الوجه، وقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم) "لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِيقٍ" (رواه مسلم).

وليكن لأهلك من جبر الخواطر حظ واسع ونصيب كبير، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما)، عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، قَالَ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" (رواه الترمذي)

إن لجبر الخواطر أثرا عظيما وفضلا كبيرا، ففيه إشاعة المحبة والألفة والمودة والتكافل والتراحم بين الناس ولقد قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الحج 77)، فمن جبر خواطر الناس جبر الله خاطره، ومن يسر على معسر يسر الله عليه، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه من كرب الآخرة، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ نَفَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ، سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ" (رواه أبو داود والترمذي) وعن أم سلمة (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ".

اللهم اجبر خواطرنا

واحفظ مصر من كل مكروه وسوء

=== كتبه ===

محمد حسن داود

إمام وخطيب ومدرس
باحث دكتوراه في الفقه المقارن